

من صحابة الرسول

المجموعة الثانية

٧

الطَّفِيلُ بنُ
عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ

نافيس محمد عزت

الطُّفيلُ بنُ عمرو الدَّوسِيّ

رجع أحمد من المدرسة مُتأخراً ، فاعتذر لوالده قال :
آسفُ يا أباي لتأخري ، فقد كنا ندعو للمعركةِ
الانتخابيةِ .

سأله والده : آيةُ انتخاباتٍ يا أحمد ؟

قال أحمد : انتخاباتُ رائدِ الفصلِ يا أباي ، فنحن جميعاً
نقف في صفِّ صديقنا عاصم ، فالمعركةُ حامية ، لوجودِ
خصمٍ قوِيٍّ ينافسه .

قال والده : وهذا لمصلحتكم ، فالمنافسةُ عادةٌ تُؤدِّي
إلى تحسِينِ الأداءِ .

قال أحمد : نحن مع صديقنا عاصم ، ولن نُعيرَ مُنافسته
أى اهتمام .

سأله والده : ألم يفز عاصم في السنتين الماضيتين ؟
فلماذا لا تغيرونه هذه السنة ، فتسفيدوا بأفكار
جديدة ، ومبادئ مختلفة ؟

تأمل أحمد في كلام والده وقال : ولكن عاصمًا
صديقنا ، ولن نسمح بهزيمته .

قال والده : المصلحة فوق الصداقة يا بُنى ،
واختياركم رائدًا جديدًا للفصل لن يضرَّكم شيئًا ،
ولكنه سيفيدكم حتمًا .

قال أحمد : أتعنى يا أبى أن نستمع للمرشح الجديد ،
ونقارن بينه وبين صديقنا عاصم ؟

ابتسم والده وقال : قال واحدٌ من صحابة رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - قبل إسلامه ، مقولاً
استمع إليها وتأملها ، قال : تكلمك أمك يا طفيل ..
إنك لرجلٌ لبيبٌ شاعر ، وما يخفى عليك الحسنُ من

القبيح ، فما يمنعك أن تسمع من الرجل ما يقول ، فإن
كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته .
فكر أحد في المقولة فقال : كلام معقول ، ولم لا ؟ ،
ولكن من هو هذا الصحابي يا أباي ؟ هلا حكيت لي
قصته ؟

استجاب له والده ، وراح يحكي قصته ، قال : إنه يا
بني الطفيل بن عمرو الدوسي ، نسبة إلى قبيلة «دوس»
التي كان سيدا لها في الجاهلية ، وكان كريما عطوفا
يطعم الجائع ويؤمن الخائف ويجير المستجير ، كما كان
سيدا مهابا جليلا في قومه ، علاوة على أنه كان شاعرا
مرهقا رقيق الشعور يتردد دائما على مكة في مواسم
سوق عكاظ ، حيث يقد إليها الشعراء من كل بقاع
الأرض ، وكان الطفيل من الشعراء البارزين .
وبدا النور يسطع في مكة ، وبدأ رسولنا الكريم -
صلى الله عليه وسلم - يدعو لعبادة الله الواحد الأحد ،

ونبذ عبادة الأصنام ، فخافت قُرَيْش على مكانتها في الوجود وعلى زعامتها بين القبائل ، فعمِلت على إطفاء نور الله والصدِّ عن الدين الجديد بكلِّ وسيلة ، سواءً أكانت مَشْرُوعَةً أم غَيْرَ مَشْرُوعَةً . كما حرصت على ألاَّ يلقى الطُّفَيْلُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيعلن إسلامه ، فتكون موهبته الشعريَّة سلاحاً في خدمة الإسلام ، فكان كلما قَدِمَ إلى مَكَّة ، استقبلوه أعظم استقبال ، ورَحَّبوا به أكرمَ ترحيب ، وداوموا على تحذيره من مُحَمَّد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقالوا له : يا طُفَيْلُ إِنَّكَ قَدِمْتَ إِلَى بِلَادِنَا ، وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ قَدْ أَفْسَدَ عَلَيْنَا أَمْرَنَا ، وَمَزَّقَ شِمْلَنَا ، وَشَتَّ جَمَاعَتَنَا ، وَغَنَّ إِنَّمَا نَخْشَى أَنْ يَجِلَّ بِكَ وَبِزَعَامَتِكَ فِي قَوْمِكَ مَا قَدْ حَلَّ بِنَا ، فَلَا تَكَلِّمِ الرَّجُلَ ، وَلَا تَسْتَمِعَنَّ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنَّ لَهُ قَوْلًا كَالسَّحَرِ يَفْرُقُ بَيْنَ الْآبِنِ وَأَبِيهِ ، وَبَيْنَ الْأَخِ وَأَخِيهِ ، وَبَيْنَ الزَّوْجَةِ وَزَوْجِهَا .

قال أحمد : أهذه الدرّجة كانت قريش تخشى إسلامه ؟
قال والده : كانت للشاعر في تلك الأيام يا أحمد
مكانة عظيمة ، بمثابة وسائل الإعلام في أيامنا هذه ،
وكان لا يخلو مجلس من المجالس من الشعراء ، ومن إلقاء
الشعر وسماع الشعر .
ونجد أنّ الطّفيل تأثر بكلام قريش وبتحذيرها ،
فعندما ذهب للطواف بالكعبة حشا أذنيه بالقطن حتى لا
يسمع محمداً - صلى الله عليه وسلم - ولا يُفتن بقوله .
ولكنّ الله تبارك وتعالى يهدى من يشاء ، وإرادته
فوق كلّ إرادة ، فعندما رأى الطّفيل الرسول يُصلي ،
أسره منظره ، واسعوى عليه خشوعه وورعه وتّقاه ،
فاقترب منه وقال في نفسه مقولته التي سبق أن قالها :
لماذا لا أسمع ما يقول ، فإن كان خيراً قبلته ، وإن كان
شراً ابتعدتُ عنه ؟

واستمع الطفيل لقول النبي - صلى الله عليه وسلم -
فأنشرح فزاده للذين الجديد فأعلن إسلامه ، وخرج إلى
القرشيين منشدا :

ياذا الكفين لست من عبادك

ميلادنا أقدم من ميلادك

وذو الكفين صنم كانت تعبده قبيلة « دوس » .
فوقعت كلماته على قريش وقوع الصاعقة ، ولكنها
خشيت أن تمسه بسوء ، فهو سيد قبيلته « دوس » ،
فإن أصابه مكروه اشعلت نار الفتنة بين القبائل .
ومكث الطفيل بمكة يتعلم تعاليم الدين الذي أحبه ،
وبعد أن أمم حفظ ما تيسر له من القرآن استأذن رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - في أن يعود لقومه
ويدعوهم إلى الإسلام ، قال : إني يارسول الله امرؤ
مطاع في عشيرتي ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى

الإسلام ، فادع لى الله أن يجعل لى آية تكون عوناً لى
فيما أدعوهم إليه .

فدعا - صلى الله عليه وسلم - ربّه قال : اللهم اجعل

له آية .

وكانت الآية التى دعا بها - صلى الله عليه وسلم -

على مشارف القبيلة ، فأضاء الله بين عيني الطفيل ضياءً

وهاجا كأنه السراج . فخشى الطفيل أن يظن قومه أن

ذلك من غضب ذى الكفين عليه ، فتضرع إلى ربّه الأ

تكون الآية فى وجهه ، فاستجاب الرحمن لدُعائه فكانت

الآية فى سوطه ، حيث أضاء رأس سوطه كالقنديل

المعلق .

وبدا الطفيل يدعو قومه لعبادة الله ونبذ عبادة

الأصنام ، فكانت النتيجة أن آمن أهل بيته جميعاً - أبوه

وأُمّه وزوجته وابنه عمرو - أمّا أهل قبيلته فلم يجد منهم

نفسَ القَبُولِ ، فأعرضوا عنه جميعاً إلا واحداً ، هو أبو
هُرَيْرَةَ الَّذِي ما أن سمعَ دعوتهُ إلا وسارعَ إلى الإسلامِ .

قال أحمد : لماذا لم تُسَلِّمْ قبيلةُ « دوس » يا أباي ؟

أليسَ طبعياً أن تتبعَ القبيلةُ زعيمَها ؟

قال والدُه : هذا صحيحٌ يا أحمد ، ولكنَّ قبيلةَ

« دوس » كانوا يُجَلِّونَ ذا الكُفَّينَ وَيَعْبُدُونَهُ وَيَتَدَلَّلُونَ

إليه ، وأهمُّ من ذلك أنهم كانوا يخافونه أشدَّ الخوفِ ،

حتى إنهم كانوا يتوقعونَ انتقامَ ذِي الكُفَّينَ من أهلِ بَيْتِ

الطُّفَيْلِ ، لَتَسْفِيهِهِمْ إِيَّاهُ ، وكُفِّرِهِمْ بِهِ .

وعادَ الطُّفَيْلُ إلى رسولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

حزينا ، وقال : قلوبُ عليها أكنةٌ وكفرٌ شديدٌ .. غلب

على « دوس » الفُسُوقُ والعِصْيَانُ .

فحوضاً رسولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وصلى

لِلَّهِ وَدَعَاهُ : اللَّهُمَّ اهْدِ « دوساً » ، اللَّهُمَّ اهْدِ

« دوساً » ، اللَّهُمَّ اهْدِ « دوساً » . ثم انضتْ إلى

الطُّفَيْلِ وَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ وَارْفُقْ بِهِمْ وَادْعُهُمْ إِلَى
الإسلام .

قال أحمد : وماذا بعدُ يا أباي ؟ هل أسلمتُ « دوس » ؟
قال والدُه : نعم أسلمت ، ويرجعُ ذلك لدُعائِه -
صلى الله عليه وسلم ، ولصبرِ الطُّفَيْلِ وإصراره ، فما
زالَ يدعوهم حتى أسلمَ ثمانونَ بيتاً من « دوس » ، هم
أغلبُ القبيلة .

وهاجرَ الطُّفَيْلُ وأفرادُ قبيلته إلى المدينة ، مُبايعَةَ رسولِ
الله . وكان ذلك إبانَ غزوةِ خيبر . وأبى الطُّفَيْلُ
وعشيرته إلا أن يشاركوا في الغزوة ، وطلبَ من النبي -
صلى الله عليه وسلم - أن تكون لهم ميمنةُ الجيش ،
وذلك عندما أحسَّ بقوةِ الرُّكنِ الجنوبيِّ من قلعةِ
اليهود ، وقال :

- يا رسولَ الله اجعلنا ميمنتك واجعل شِعارنا

« مبرور » .

ولانت الحصون وفتحت خيبر ، وكان هذا هو آخر عهد اليهود بالمدينة . ولبت الطفيل مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أتم الله عليهم فتح مكة ، ثم استأذن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في السفر إلى « دوس » لإحراق ذى الكفين صنيها المعبود .

وتم إحراق الصنم على مشهد ممن لم يسلموا بعد ، وهم يترصون السوء بالطفيل ، ويتوقعون أن تكون نهايته إذا مس ذى الكفين بضر .

وما أن تم إحراق الصنم إلا وأسلم الجميع في « دوس » فقد رأوا مدى ضعف ذى الكفين وهوانه ، حتى إنه لم يستطع أن يكف الأذى عن نفسه .

ولازم الطفيل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى لقي الرسول ربّه ، وخلفه أبو بكر الصديق . وجزن الطفيل وابنه عمرو لردة بعض المنافقين عن

الإسلام ، فكانا حَرِيصَيْنِ عَلَى الْمَشَارِكَةِ فِي حُرُوبِ
الرَّوْدَةِ ، لِيَحْفَظَا مَكَانَةَ الدِّينِ وَهَيْبَتَهُ .

وشاركَ الطُّفَيْلُ فِي حَرْبِ طَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ ، حَتَّى قُتِلَ
طَلِيحَةَ . وَحَارِبَ فِي نَجْدٍ ، وَكَانَ ضِمْنَ الْجَيْشِ الَّذِي
بَعَثَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ إِلَى الْيَمَامَةِ لِحَرْبِ رَأْسِ الْكُفْرِ
وَالشَّرِكِ مُسَيَّلِمَةَ الْكُذَّابِ .

وَفِي لَيْلَةِ الْمَعْرَكَةِ ، رَأَى الطُّفَيْلُ رُؤْيَا اسْتَبْشَرَ بِهَا
فَقَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ رَأْسِي خُلِقَ ، وَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ فَمِي
طَائِرًا ، وَأَنَّ امْرَأَةً أَدْخَلْتَنِي فِي بَطْنِهَا ، وَأَنَّ ابْنِي عَمْرًا
جَعَلَ يَطْلُبُنِي حَيْثَا ، لَكِنَّهُ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ .

وَأَوَّلَ رُؤْيَاهُ مَسْتَبْشِرًا فَقَالَ : أَمَّا خَلَقَ رَأْسِي فَذَلِكَ
أَنَّهُ يُقَطَّعُ ، وَأَمَّا الطَّائِرُ الَّذِي خَرَجَ مِنْ فَمِي فَهُوَ
رُوحِي ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ الَّتِي أَدْخَلْتَنِي فِي بَطْنِهَا فَهِيَ الْأَرْضُ
تُحْفَرُ لِي فَأُدْفَنُ فِيهَا ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَقْتَلَ شَهِيدًا ، وَأَمَّا
طَلَبُ ابْنِي لِي فَيَعْنِي أَنَّهُ يَطْلُبُ الشَّهَادَةَ الَّتِي سَاحَطْنِي بِهَا

ولكنه لا يدركها في هذه المعركة ، ولكنه يدركها فيما بعد .

قال أحد : بالشفافية والإيمان الراسخ ، إنه رأى رؤيا استشهاده ، ومع ذلك تقدم للمعركة ولم يخش .

قال والده : إنه إنما دخل المعركة طالبا الشهادة ، فلماذا يخاف والشهادة هي منتهى أمليه في الحياة .

وما لبث وهو يطيح برؤوس الشرك ، أن رماه رجل برمية سيفٍ غادر قطع عنقه ، فخر شهيدا وصدق رؤياه .

وتحمس ابنه عمرو عندما رأى استشهاده أبيه ، فراح يكيل الضربات يمينا وشمالا طالبا للشهادة ، ولكن أجله لم يحن بعد ، وإن كانت يمينه قطعت .

قال أحد : لا بد أنها كانت معركة شريسة .

قال والده : هذا هو الوصف الصحيح لها ، فمسلمة وأعوانه قوة لا يستهان بها ، ولكنها انهارت

تَحْتَ وَطْأَةِ سُيُوفِ الْمُسْلِمِينَ الْجَبَّارَةِ ، فَقُتِلَ زَعِيمُ
الشَّرِكِ مُسْلِمَةً ، وَقُتِلَ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْوَانِهِ ، وَعَادَ
الْكَثِيرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَنْ رِذْيَتِهِمْ . وَتَمَنَّى
عُمَرُو أَنْ يَلْحَقَ بِأَبِيهِ وَيُنَالَ شَرَفَ الْإِسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَمِنَتْهُ لَمْ تَتَحَقَّقْ إِلَّا فِي عَهْدِ ثَانِي الْخُلَفَاءِ
الرَّاشِدِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي مَعْرَكَةِ الْيَرْمُوكِ ، عِنْدَمَا
خَرَجَ لِمُلَاقَاةِ الرُّومِ تَحْتَ إِمْرَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ .
قَالَ أَحْمَدُ : إِنَّهَا قِصَّةٌ رَانِعَةٌ يَا أَبِي ، قِصَّةُ شَهِيدَيْنِ بَدَلَا
رَوْحَيْهِمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قِصَّةُ إِيْمَانٍ رَاسِخٍ ، وَعَقِيدَةٍ
قَوِيَّةٍ ، وَإِصْرَارٍ عَلَى نَشْرِ الدِّينِ .
قَالَ وَاللَّهِ : أَرَأَيْتَ يَا وَلَدِي لَوْ أَنَّ الطُّفِيلَ أَصَمَّ أُذُنَيْهِ
عَنِ الدَّعْوَةِ ، وَالِاسْتِجْمَاعِ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - لَكَانَ خَسِيرَ الْكَثِيرِ ، وَخَسِيرَ الْإِسْلَامِ أَحَدَ أَبْطَالِهِ
الْعُظْمَاءِ .

قال أحمد : هذا حق ، فيجبُ على الإنسان أن يستعمل عقله في التمييز بين الصوابِ والخطأ ، ولا يعتمد على آراء الآخرين .

وعدا إن شاء الله سنعقد اجتماعا مع المرشح الجديد لريادة الفصل ، وسناقشه حتى نطلع على أفكاره .
ليكون انتخابنا للأصلح منهما إن شاء الله .